المعرّف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/YVAA2312

محمد ابلا | Mohamed Oubella* ومحمد سلمي | Mohamed Salmi**

صناعة الانتماء: دراسة في ملكية الأرض في المجتمع الصحراوي (أيت أوسى 1600–1958)

The Manufacturing of Belonging: A Study of Land Ownership in Saharawi Community (the Ait Oussa Tribes 1600–1958)

عنوان الكتاب:	**صناعة الانتماء: دراسة في ملكية الأرض في المجتمع الصحراوي (أيت أوسى 1600–1958).**
المؤلف:	سالم وكاري.
الناشر:	الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
سنة النشر:	2023.
عدد الصفحات:	488.

* باحث، حاصل على الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب (المؤلف المسؤول).
Researcher, holds a PhD in Sociology from Ibn Tofail University – Kenitra, Morocco (Correspondent Author).
Email: muhaoubella66@gmail.com

** أستاذ باحث في علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.
Researcher Professor in Sociology, Faculty of Humanities and Social Sciencies, Ibn Tofail University – Kenitra, Morocco. Email: salmitemara1@yahoo.fr

مقدمة

تُعدّ الأرض عنصرًا مركزيًا ضمن مكونات المجال الحيوي لقبائل الصحراء في جنوب المغرب، وفاعلاً مهمًا في ديناميتها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتشكّل إطارًا حاضنًا لأشكال التفاعل والإنتاج والتضامن والنزاع، ما يجعلها عدسةً لفهم الأوضاع والتحولات وروابط الانتماء والنزاعات على حد سواء.

ضمن هذا الفهم، يسعى كتاب **صناعة الانتماء: دراسة في ملكية الأرض في المجتمع الصحراوي (أيت أوسى 1600–1958)** بفصوله الخمسة، لدراسة علاقة الإنسان بالمجال من خلال حالة علاقة قبيلة أيت أوسى بالأرض، راصدًا موضوعًا شائكًا يتداخل فيه الاجتماعي بالتاريخي والثقافي، وذلك على مستوى الزمن وأنماط التفكير والفعل البشري. وقد اتجه تفكير المؤلف في هذا العمل إلى معالجة الإشكالية المتصلة بالكيفية التي ساهمت بها قضايا الأرض في بلورة بنى المجتمع الصحراوي المدروس عبر ثلاثة أبعاد: البعد المادي – التقني، فالبعد العلائقي – الاجتماعي، وصولاً إلى البعد الرمزي – الثقافي، وذلك بالنظر إلى قضايا الأرض باعتبارها ظاهرة اجتماعية كلّية، وصورة عن دينامية المجتمع وفاعليته.

أولاً: الأرض والنظام الاجتماعي لأيت أوسى

يعدّ المؤلف دراسة قضايا الأرض مدخلاً مواتيًا لفهم مختلف جوانب النظام الاجتماعي للقبيلة وأبعاده، ومعيش الناس وهوياتهم الاجتماعية، بما في ذلك طبيعة تأويل هذه القبيلة لذاتها ولواقعها المادي. وتتجاوز المكانة التي تحظى بها الأرض في هذه الحالة كونها وسيلة للإنتاج، لتغدو عاملاً أساسيًا وحاسمًا في صناعة الانتماء، ومواردًا استراتيجيًا لبناء هوية الجماعة القبلية، ومقولة تصنيفية تنتج التراتبيات الاجتماعية المبنية على الملكية ومقدار الثروة العقارية، إضافة إلى اعتمادها عاملاً للإقصاء، مثلما هو الحال بالنسبة إلى نساء القبيلة (ص 170).

تُشكّل الأرض خط تماسّ بين الأفراد والجماعة القبلية، وفيما بين الأفراد أنفسهم على صعيد الملكية. وهي في الحالة المدروسة ميدان للنزاعات القبلية، ومختبر لبناء التمثّلات والممارسات حول ذواتهم وغيرهم. باختصار "هي الشخصية المولّدة للمعنى والمتصرفة في تأويله وحارس الهويات، طبعًا إلى جانب الماء" (ص 166–167)، حيث نجد، في واقع الواحات، أنّ قيمة الأرض لا تنفك عن قيمة الماء، وفقًا لما سماه مبارك الطايعي "زواج الأرض بالماء في بيئة توسم بندرة الموارد"[1].

يستخلص المؤلف في هذه الحالة أنّ الأرض مثّلت محور العلاقات الاجتماعية وموضوع رهانات اقتصادية وسياسية، لتتعدد بذلك أشكال ملكيتها وأساليب استغلالها، وكذا طرائق الوصول إليها، التي لم تَخلُ في الكثير من الأحيان من لغة القوة واستخدام العنف، بحيث كلما تقوّت رغبة الأفراد والجماعات في الحصول على الأرض، وخاصة الرعوية منها، قُوبِلت بآليات تدبيرية متينة تعمل على كبح

(1) مبارك الطايعي، "البنيات الزراعية والبنيات الاجتماعية وأفق الاستمرار والانقطاع في الواحات المغربية: واحة تافيلالت نموذجًا"، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2007–2008، ص 140–141.

هذه الرغبة، ومن ثم تتناسل أشكال من العنف والنزاع الاجتماعي (ص 212).

وصف بلاسيد رامبو مسألة ملكية الأرض بأنها من ضمن المسائل التي تبقى غامضة وغير معروفة جيّدًا[2]، كما تُعدّ من "التابوهات" قياسًا على الالتباس المحيط بها. وهو ما لمسه المؤلف، حينما رصد ببليوغرافيا الإنتاجات التاريخية والسوسيولوجية والقانونية حول المسألة العقارية في المغرب ومجال دراسته على وجه الخصوص، والتي كانت لائحتها وافية.

تُعتبر ملكية الأرض، عبر المدخل الدراسي الذي اختاره المؤلف، مدار معيش الناس ومشكلاتهم على السواء، إنها بحسب المؤلف "مزيج من الأنساق والنظم، سواء حققت التماسك الاجتماعي أم أدت إلى النزاع والتنافس" (ص 66). وتختلف الملكية الفردية للأرض لدى أيت أوسى بين حالتَي الواحة المسقية والواحة البورية. ففي الحالة الأولى، تصبح الأرض ذات ذاكرة ومعنى بحكم قربها من "القصر"[3]، في حين تبقى في الحالة الثانية ناقصة المعنى، إذ يُوشي المِلك البور في وعي الواحيين المستقرين بغاية واحدة؛ هي الأمل في منتج وافر وتدبير مخاطر المحصول إن تحقق.

بهذه المعاني، تعتبر ملكية الأرض داخل الواحات المسقية أحد مظاهر التراتب الاجتماعي، نظير ما خلقته التشكيلات الاجتماعية من تمايز بين ساكنة الواحة. لقد لاحظ المؤلف أنّ تلك الملكية تشهد تركزًا في يد فئة بعينها، تملك جاهًا سياسيًا ومراكمة لوسائل الإنتاج (ص 68)، وهذا هو الواقع الذي أنتج فئات اجتماعية عريضة من دون أرض، بسبب طبيعة الأعراف المحلية التي تخضع بموجبها الملكية العقارية الفردية لتقلبات أشكال التداول الاجتماعي والقانوني. وأمام ما تخضع له الملكية العقارية لدى أيت أوسى من هذه الإكراهات البنيوية، ومن تداول متقلب (شرعي، وعرفي، وفردي، وجماعي)، سعت مكونات المجتمع الواحي للتحايل على مختلف المشكلات التي تطرحها، وذلك باللجوء إلى الوقف على المؤسسات الدينية، باعتبارها آليات شرعية لتحصين الأرض وحمايتها من كل أشكال التفويت والمنازعات (ص 444). وقد خصّ هذا بصفة محددة الملكية الفردية والأُسرية، أمّا الملكية الجماعية فتتجسد في الأراضي الفلاحية والمجال الرعوي على السواء، حيث سعت مجموعة أيت أوسى القبلية منذ بداية استقرارها لتوسيع سيطرتها المجالية والديموغرافية على مجموعة من هذه الأراضي، باستخدام ثالوث الغزو والإجلاء والدفاع؛ وهو ما مثّل محددًا لهويتها وأساسًا لوجودها المادي والرمزي في آن، على الرغم مما لحق بُنى القبيلة والنظم العرفية للأرض من تحولات حديثة منذ زمن الاستعمار.

يرى المؤلف أنّ ما بلغته ملكية الأرض في إطار القبيلة من أهمية، هو ما جعل منها مشتركًا جماعيًا وعاملاً محددًا لهوية القبيلة، وضامنًا لاستمراريتها وإعادة إنتاجها (ص 119)، بل إنها الأساس الذي هَيْكل شخصية القبيلة ونمط إدراكها للمجال، علاوةً على مساهمتها في بناء الأساس الذي

(2) Placide Rambaud, *Sociologie rurale: Recueil de textes*, Textes de sciences sociales 16 (Paris: Editions Mouton, 1976), p. 159.

(3) القصر (جمع قصور): مجال سكني عبارة عن بناء متراصّ ومحصن بأسوار، ونمط معماري محلي ينتشر في واحات الجنوب والجنوب الشرقي للمغرب. تشكّل القصور في هذه الحالة موروثًا معماريًا وثقافيًا عريقًا يمتاز بتقنيات ومواد محلية تقليدية.

تُنسج حوله مختلف الاستراتيجيات القبلية، خاصة المتصلة منها برسم هوامش التحرك والتنقل الرعوي.

وعبر سعي هذه المجموعة القبلية، على امتداد القرون الثلاثة الماضية، للهيمنة على الأرض وتوسيع مجالها القبلي، اعتمادًا على استراتيجيات مختلفة، واللجوء إلى تحركات وصفها المؤلف بـ"التحتية"، باعتبارها مبنية على التنقلات الرعوية، شكّل الحصول على الأرض لدى أيت أوسى العنصر المحرك لدينامية وجودها، إلى الحد الذي ارتبطت فيه مختلف سماتها التي عرفت بها وتبنتها بعنصرَي الأرض والمكان.

ثانيًا: الأرض بين ممارسات الإنتاج وآليات تدبير النزاع

إن ما ابتكره البدو من استراتيجيات متكيفة مع وسطهم البيئي، لإعداد الأرض على النحو الذي يضمن استغلالها استغلالاً جيّدًا، وخلق آليات خاصة لتدبير النزاع حولها بما يضمن استمرار الجماعة القبلية، ويعزز من قوة تلاحمها، هو ما جعل الإيكولوجيا الاجتماعية للقبيلة تمتزج بإيكولوجيتها الثقافية.

يتميّز إنتاج الفلاح المحلي للمشهد الفلاحي بنوع من التباين يقوم على نظام زمني يحتوي ثلاثة عناصر يعكس كل واحد منها زمنًا محددًا؛ فمن جهة، يعمل الزمن الإيكولوجي من خلال تنظيم القرارات في الحقول الزمنية "للمْنَازْلْ"[4] والأبراج والفصول (ص 226)، ويتعلق الأمر هنا بتنظيم قرارات الحرث وتأبير النخل وجمع المحصول الفلاحي، وذلك في ارتباط وثيق بطبائع المناخ التي تعتبر عاملاً أساسيًا في تنظيم الإيقاع الزمني للفلاح المحلي (ص 228).

أمّا الزمن الثقافي، فيرتبط بمجموعة من القيم والرموز التي تساعد الفلاح على إدراك الحقول الزمنية وتوظيفها في ممارسات الإنتاج. وتجسّد الأمثال الشعبية في هذه الحالة وعي الفلاح بالزمن الإيكولوجي (ص 230). وإذا كان الزمن الثقافي زمنًا مدركًا وسيكولوجيًا، فإن الزمن المعيش يعكس الممارسات التي يسلكها الفلاح في حياته اليومية بالواحة، حيث يتأطر الزمن المعيش لدى الفلاحين بحسب المؤلف، بثلاثة أنماط من الإيقاعات: وهي الممارسات الرعوية – الزراعية، ثم الأشغال المنزلية وما يتصل بتفقد الماشية، وأخيرًا الراحة البيولوجية التي تقابل فترة النوم (ص 233).

وعلى الرغم من دقة هذا النظام الزمني وتوازن توزيعه، فإن استمرارية الممارسات الإنتاجية المرتبطة به تظل رهينة بمدى استقرار القاعدة المادية التي تقع عليها، وهي الأرض؛ وهو ما يتجسد على الأخص ضمن الزمن المعيش. فقد شكّلت رغبة الأفراد والجماعات في الحصول عليها واستثمار منافعها أرضيةً مهمةً لتناسل أشكال مختلفة من النزاع العنيف والمتعدد الأشكال حولها، بحسب تعدد طبائع تداول سكان الواحة للأرض. وبذلك صارت تلك النزاعات جزءًا من معيش الواحيين، على وقع الثغرات القانونية والعرفية المخلّة بعقود التداول وعوامل أخرى (ص 445).

في المقابل، ولأن المجتمع لا يمكن أن يقوم على عنف من دون حدود، سعى مجتمع أيت أوسى

(4) تستعمل عبارة "المنازل" (جمع مْنْزْلَة) في الأوساط القروية والبدوية لتحديد مواعيد الزراعة والحصاد والقنص وأحوال المناخ عمومًا.

لتدبير هذه النزاعات وضبطها، بحسب طبيعتها التي تختلف من النزاعات البنيوية إلى الظرفية. وقد شكّلت الوثيقة وأحكام العرف والشرع أهم الآليات التي جرى ابتكارها لتدبير صور النزاع على الأرض والمجال الحيوي عمومًا. وفي هذا الصدد، وإلى جانب العرف والشرع اللذين يحرصان على حلّ مختلف النزاعات العصية (ص 192)، يتزايد اعتبار الوثيقة أهمّ حجة للدفاع عن ملكية الأرض؛ من حيث إنها شاهد حقيقي على الحق فيها، في سياق ما لحق هذه الآليات من تحولات عميقة زمن الاستعمار، لتظهر بدلاً منها آليات جديدة، ذات طبيعة إدارية رسمية.

ثالثًا: الرعي الترحالي وأشكال الارتباط بالمجال وإدراكه

يُعدّ النشاط الرعوي عصب الحياة القبلية لدى أيت أوسى، حيث ظل الرعي المبني على التنقل الواسع النطاق أنجع السبل لاستغلال المجال، والتغلب على فقر موارده الحيوية. فقد تحكّمت في تنقلات أفرادها وعبورهم لأراضي الترحال عدة عوامل، تعود الإيكولوجيّة منها إلى ظروف البيئة والمناخ التي تتطلب مهارات التكيف مع قساوة الطبيعة. وفي هذا الإطار، يُعرف عن سكان صحراء جنوب المغرب أنهم يقودون قطعانهم وسط الصحراء بحثًا عن الكلأ والماء اعتمادًا على أشكال إدراكهم للمجال؛ الأمر الذي دفع صوفي كاراتيني إلى وصفهم بـ"أبناء الغيوم"، لأنهم "يجعلون حياتهم حجًا مستمرًا وراء الغيوم الموسمية النادرة، التي هي مصدر عيشهم، وعيش قطعانهم"[5].

(5) Sophie Caratini, *Les enfants des nuages* (Paris: Editions Le Seuil, 1993), p. 31.

وإضافة إلى ما سبق، تتحكّم عوامل أخرى في مسارات التنقل واستغلال أراضي الترحال، لا سيما ما يتصل منها بانعدام الأمن وسيادة ظاهرة النهب التي تُعدّ من خصائص بعض المجموعات القبلية بالصحراء[6]. لذلك، كان اعتماد أيت أوسى على نشاط الترحال مؤطرًا بعوامل سياسية بلورتها القبيلة لمجابهة المجموعات القبلية المجاورة الأخرى، وبما يضمن حماية القطيع في لحظات النهب واللصوصية المحدقة بها، على غرار "الفريك"[7] الذي يعدّ الوحدة الأساسية للترحال داخل مجال القبيلة، بما يتطلبه من مقومات بشرية، وبما يخضع له من ترتيبات قياسًا على العوامل المناخية والمصاعب الأمنية المحتملة وظروف الرعي والانتجاع.

ضمن أوضاعٍ كهذه، تظل ممارسات الرعي الترحالي مشروطة دائمًا بعوامل متشابكة، تعكس على نحو عام أشكال التأقلم مع ظروف البيئة وصيغ استغلال المجال الرعوي التي يُعدّ القطيع وهمّ تنميته هدفها الرئيس. ومرة أخرى، تبدو

(6) عبد الحميد فائز، **الحرب في المجتمعات الرعوية: آليات إنتاج العنف في المجتمع البيضاني قبل الاستعمار** (الرباط: منشورات مركز الدراسات الصحراوية، 2015)، ص 136-161.

(7) يُعدّ الفريك من البنى المشكّلة للقبيلة الصحراوية جنوب المغرب، ويقصد به تجمّع مجموعة من الخيام لجماعة تنزل في مكان معيّن بغرض الظعن وانتجاع المراعي، وتنتقل هذه الخيام على الأغلب جماعيًا بحثًا عن المراعي والماء، ويكون هذا الانتقال بأمر من الجد إذا كان هذا الفريك ينتمي كله إلى الجد نفسه. أمّا إذا كانت خيامه تنتمي إلى عائلات مختلفة، فهم يأتمرون في أغلب الظروف بأوامر مختلف شيوخ هذه المجموعة. ولا تتحكم في تنقلاتهم هذه العوامل الاقتصادية والإيكولوجية فحسب، بل كذلك ظروف النزاعات القبلية والحروب التي تنشب بين القبائل؛ ما يضطرهم إلى التنقل في مجموعات كبيرة تسمى عند بدو الصحراء "الفركان". للمزيد في هذا الشأن، ينظر: محمد دحمان، **دينامية القبيلة الصحراوية في المغارب بين الترحال والإقامة، دراسة سوسيو-أنثروبولوجية حول أولاد بالسباع** (الرباط: طوب بريس، 2012)، ص 54.

اللحظة الاستعمارية ذات أثر بالغ في شهود هذه الممارسات تغيّرات عميقة، لا سيما ما اتصل منها بالشروط الإدارية الجديدة التي حدّت من أنشطة الرعي المتنقل، وساهمت في استقرار الأسر الرعوية في إطار ما عرف أنثروبولوجيًا بظاهرة "توطين البدو".

بهذه العوامل وغيرها، يكتسي المجال في هذه المناطق حمولة أنثروبولوجية عميقة، خاصةً على صعيد تمثّلات الناس له، التي تمتح من صورة الأرض المثقلة بالحضور القوي للرمزي والمقدّس، بما جعلها رديفًا للعِرض ومطابقًا له[8]، قياسًا على ما تعكسه التمثّلات من استعمال رمزي للمجال. وفي هذا الباب، "يتمثّل الرحّل كل موضع ينزلونه بخيامهم مسكونًا بالجن والشياطين التي يجب درء شرها اعتمادًا على الأضاحي والقرابين" (ص 448)، فيقيمون لأجل ذلك وجبة "المْعْرُوفْ"[9] الطقوسية لطرد ما يسكنه من شرور. إنها ممارسات ثقافية تعمل على إعادة إنتاج المجال الرعوي وافتكاكه، حيث تصبح ممارسة "المْعْرُوفْ" آلية ثقافية لترسيم الحدود الرمزية للمجال، ومن ثمّ تصبح الأرض، التي يُخرق سكونها بذبيحة، مجالاً معمورًا بالمعنى الأنثروبولوجي؛ أي مجالاً يحمل بصمة الجماعة القبلية وهويتها، ويتحول فيه الفضاء الجغرافي الموحش إلى مجالٍ مألوف ومأهول بالقيم والممارسات.

يُبرز المؤلف ما تقوم عليه هذه التمثّلات حول مجالات الرعي من اختلافات، بحسب عوامل الزمن والموضع والاتجاه؛ ذلك أنّ البدو يحملون تمثّلاً معيّنًا عن كل جهة يقصدونها. فيرتبط الجنوب في تمثّلهم بكل ما هو إيجابي؛ إذ هو في نظرهم مصدر التجارة وموطن الرجال الذين يوسّعون به قاعدة القبيلة، كما يعتبر مصدر قطعان الإبل المنهوبة، ومجال المراعي الخصبة، وبذلك فهو مجال مرغوب فيه ومتطلع إليه (ص 418). وعلى خلاف ذلك، هم يعتبرون الشمال (الأطلس الصغير) مجالاً غير مرغوب فيه؛ لأن مراعيه ضيقة لانتشار الملكيات الفلاحية والأراضي الجبلية فيه، ولا تتكيف معه قطعانهم لنداوة هوائه وتأثيره السيئ في صحتها التي اعتادت مناخ الصحراء. وفي الاتجاه نفسه، هم يرون أنّ كل من هجر مجالهم القبلي في اتجاه الشمال لا يعود حتمًا، إنه في تمثّلهم الثقافي مجال "يأكل الرجال" (ص 419).

وبناء عليه، تُشكّل التمثّلات حول المجال، في تباينها وتكاملها، نوعًا من نظام تعرّف يساهم في إنتاج مجال الإنتاج وإعادة إنتاجه، وبالطريقة عينها، هو يعبّر عن أنماط من التكيّف مع ظروف الحياة الصعبة، وعن أشكال الارتباط بالمجال وضبطه. وبذلك تمنح هذه التمثّلاتُ الباحثَ بعض مفاتيح فهم أبعاد النزاع حول المجال الرعوي في حالات مماثلة أو مشابهة.

خاتمة

حظي موضوع الأرض وقضاياه المختلفة في أرجاء مختلفة من المغرب بمتابعة علمية غزيرة لدى علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين والجغرافيين وحتى المؤرخين، حتى إن اقترن حضوره في متن

(8) محمد بوزنكاض، "حيازة الأرض في الصحراء بين العرف والفقه"، في: **الصحراء: أمكنة التاريخ وفضاءات التبادل**، تنسيق رحال بوبريك وأحمد جوماني (الرباط: منشورات مركز الدراسات الصحراوية، 2019)، ص 139.

(9) وجبة طقوسية وقربانية تقدّمها المجموعات في الأوساط القروية في المغرب وتتناولها في سياقات ثقافية مخصوصة. للمزيد في هذا الصدد، ينظر: حسن رشيق، **سيدي شمهروش: الطقوسي والسياسي في الأطلس الكبير**، ترجمة عبد المجيد جحفة ومصطفى النحال (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2010).

هذه الدراسات بموضوعات أخرى، من قبيل البنى القبلية والسلطة، والطقوس، والأعراف، وغيرها. إلّا أنه لم يحظَ بالغزارة نفسها في المتابعة كلما تعلّق الأمر بواحات الصحراء جنوب المغرب وباديتها عمومًا؛ ويعود ذلك إلى طبيعة الأرض التي تطرح إشكالات كثيرة وبأبعاد مركّبة، وأيضًا إلى طبيعة المجال الصحراوي الذي يسمه واقع إيكولوجي جعل معظم أراضيه تنتمي إلى الأراضي الموات. وتجعل كل هذه الأسباب دراسة هذا المجال وأراضيه عسيرة، وعلى الأخص إذا ما أضفنا إليها أشكال الملكية وتعقّدها وغياب الوثائق، ما يعسر معه أن تكون موضوع ملكية كاملة[10].

وبالفعل، تطرح الطبيعة العقارية للأرض في الصحراء عدة إشكالات يمكن اكتشافها انطلاقًا من الصيغ التي يجري التعبير بوساطتها عن هذه الوضعية. لذلك، يتأرجح بعض الباحثين في التعبير عن تلك الطبيعة بين استعمال اصطلاحَي "الملكية" و"الحيازة"، وهو ما سار عليه مؤلف الكتاب، حيث استعملهما في الكثير من الأحيان، وكأن الأمر لا يتصل إلا بمرادفات تؤدي المعنى والدلالة نفسيهما، والحال أنّ اصطلاح الحيازة La possession يختلف في حمولته وحدوده عن اصطلاح الملكية La propriété؛ "ففي سياق مجال موسوم بالبداوة ومحكوم بخصوصية صحراوية يسود فيها الانتجاع، تتبدد مقومات الملكية الخاصة وتتراجع شروطها، فهي ملكية غير مكتملة تقتصر على حق الانتفاع أحيانًا في سياق يعترف ضمنيًا بهذه الحقوق المعبّر عنها تحت اسم الحيازة"[11].

واقعًا، تُمارس القبائل الرعوية المنحدرة من صحراء جنوب المغرب، ومن ضمنها أيت أوسى، حقوق الانتفاع من موارد الأرض الرعوية من دون أن يؤدي ذلك إلى احتكارها ومنعها عن الغير، نظرًا إلى صعوبة رسم حدود الملكية في الصحراء؛ ما يجعل حقوق الانتفاع في هذه الحالة (الرعي والسقي) مرادفةً للحيازة ومتضمنةً لمدلولها. وباعتبار ما يحيل عليه التاريخ الاجتماعي لحصول أيت أوسى على الأرض وما يقوم عليه من عناصر الانتزاع والتدافع، وفقًا لثالوث الغزو والإجلاء والدفاع، فإن مصطلح الحيازة في هذا السياق يُعدّ أقرب إلى الدلالة على معاني الانتفاع والهيمنة على الأرض التي لا ترتقي إلى مستوى الملكية كما هو الحال في المجتمعات المستقرة كليًا. وعلى الرغم من أحقية الركون إلى هذه الحقيقة، فإن من المهم التأكيد أنّ الطابع الواحي للحياة البدوية للقبيلة الصحراوية في الجنوب المغربي مختلفٌ نسبيًا عن الطابع الواحي لمناطق أخرى وسط المغرب وجنوبه الشرقي.

ومقابل عدم استيعاب طبيعة الأرض، وخاصةً الرعوية منها، في هذا المجال، لشروط الملكية التامة، فإن منزلتها تختلف عن منزلة المواشي التي تعتبر ملكية تامة لدى القبائل الرعوية؛ ذلك أنّ قطعان الإبل مثلاً تشكّل أساس نظام الملكية في المجتمعات الرعوية البدوية التي تعيش على الترحال والانتجاع. وتفيد البحوث الأنثروبولوجية أنّ هذه الاختلافات تاريخية، مثلما لاحظ جاك بيرك، في أطروحته حول الأطلس الكبير الغربي، أنّ ملكية الأرض المزروعة لدى مجتمعاته القروية تحظى بأهمية تفوق الأهمية المُضفاة على المنزل[12].

(10) بوزنكاض، ص 135.

(11) المرجع نفسه، ص 141.

(12) Jacques Berque, *Les Seksawa: Recherches sur les structures sociales du Haut–Atlas Occidental* (Paris: PUF, 1954), pp. 354– 355.

ولم تكن الملاحظات السابقة إلا توسيعًا لآفاق الاستفادة من الكتاب، الذي يشكّل، إجمالاً، أرضية بينية خصبة لتكامل تخصصات مختلفة في دراسة الأرض وأهميتها بالنسبة إلى المجموعات القبلية في جنوب المغرب؛ إذ ينهل من معين المعرفة التاريخية، وكذا من معارف الأنثروبولوجيا وأدواتها، فضلاً عن توظيفه معارف الجغرافيا والسوسيولوجيا والاقتصاد؛ الأمر الذي مكّن مؤلفه من إنتاج معرفة متعددة الأبعاد حول جوانب من النظام الاجتماعي لقبيلة أيت أوسى، عبر مدخل علاقة المجتمع بالأرض. لقد بذل المؤلف مجهودًا مهمًا في التعريف بالحياة الصحراوية المغربية، خاصة فيما تُمثله الأرض من فاعل محوري في صناعة الهوية والانتماء، وفي تدبير المجال وضبط التراتبيات الاجتماعية، والعلاقات داخل القبيلة وبينها وبين القبائل الأخرى.

يمكن عدّ كتاب **صناعة الانتماء** من أهم الدراسات البينتخصصية التي اتجهت إلى التركيز على دراسة حالة من المجتمعات الواحية والتقليدية في الصحراء جنوب المغرب؛ إذ شكّل الانطلاق من مسائل الأرض، لفهم تاريخ القبيلة وديناميّاتها، تحديًا قاد المؤلف إلى تسليط الضوء على مسألة شائكة ومركّبة تتداخل فيها عناصر متعددة الأبعاد.

المراجع References

العربية

دحمان، محمد. **دينامية القبيلة الصحراوية في المغارب بين الترحال والإقامة، دراسة سوسيو-أنثربولوجية حول أولاد بالسباع**. الرباط: طوب بريس، 2012.

رشيق، حسن. **سيدي شمهروش: الطقوسي والسياسي في الأطلس الكبير**. ترجمة عبد المجيد جحفة ومصطفى النحال. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2010.

الصحراء: أمكنة التاريخ وفضاءات التبادل. تنسيق رحال بوبريك وأحمد جوماني. الرباط: منشورات مركز الدراسات الصحراوية، 2019.

الطايعي، مبارك. "البنيات الزراعية والبنيات الاجتماعية وأفق الاستمرار والانقطاع في الواحات المغربية: واحة تافيلالت نموذجًا". أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2007-2008.

فائز، عبد الحميد. **الحرب في المجتمعات الرعوية: آليات إنتاج العنف في المجتمع البيضاني قبل الاستعمار**. الرباط: منشورات مركز الدراسات الصحراوية، 2015.

الأجنبية

Berque, Jacques. *Les Seksawa: Recherches sur les structures sociales du Haut–Atlas Occidental*. Paris: PUF, 1954.

Caratini, Sophie. *Les enfants des nuages*. Paris: Editions Le Seuil, 1993.

Rambaud, Placide. *Sociologie rurale: Recueil de textes*. Textes de sciences sociales 16. Paris: Editions Mouton, 1976.